نظام القضاء في سلطنة سنار الإسلامية

د. خوجلي أحمد الصديق [1].

المحور الأول

سلطنة سنار ودورها الحضاري

قامت سلطنة سنار في العام الميلادي1504م نتيجة لتحالف سياسي بين القبائل العربية وقبائل الفونج المختلف علي أصولها بين علماء التاريخ وعلماء الأجناس وتمددت هذه الدولة في معظم أراضي السودان المعروفة.

والقبائل العربية دخلت إلي السودان في أوقات مختلفة ومنذ زمن بعيد سابق لظهور الإسلام نفسه.وكان الدافع الأساسي لهذه الهجرات إلي بلاد السودان هو البحث عن المرعي حيث تتوفر المياه والإعشاب في هذه المناطق.

وبمرور الزمن أصبح للمجموعات العربية وجود مقدر في بعض أنحاء السودان كما تم لهم قدر من الاختلاط مع المجموعات السكانية الموجودة في هذه المنطقة.

ولعل أكبر هذه المجموعات المهاجرة إلي السودان كانت قبائل رفاعة وربيعة وجهينة وعدنان وقحطان وبنو الكنز–عرب الشمال وعرب الجنوب–والتي واجهت الكثير من الظلم من قبل حكام دولة علوه المسيحية والتي كانت عاصمتها سوبا الأمر الذي دفع زعيم هذه المجموعة إلي تجميع الكيانات العربية المتفرقة في كيان واحد هدفه المحافظة علي هذا المكون العربي من جهة والتصدي لأي نوع من أنواع الظلم التي يمكن أن تقع من قبل حكام الدولة المسيحية من جهة أخرى[2].

قام الزعيم العربي عبد الله بن محمد الباقر بن محمد زعيم القوا سمة بمهمة تجميع الأعراب في كيان واحد ولذلك لقبوه بجماع حيث عرف في التاريخ باسم عبد الله جماع[3].

وبالفعل دخل هذا الكيان في احتكاكات مع الدولة المسيحية في سوبا وانتصر عليهم في بعض المواقع. علم عبد الله جماع بأنّ هنالك كيان أخر متضرر كذلك

---

(1) أستاذ مشارك ـ جامعة الجزيرة.

2 الشاطر بصيلي عبد الجليل-تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع وحتى القرن التاسع عشر الميلادي-الهيئة المصرية للكتاب-1972م ص23

3 الأرباب عبد الله الحسن شاور-واضح البيان في ملوك العرب بالسودان-تحقيق وتعليق الأستاذ احمد الأمين احمد شركة مطابع السودان للعملة المحدودة-بدون تاريخص11

من الدولة المسيحية ويستعد للدخول معها في حرب ذلكم الكيان هو قبائل الفونج التي أقامت دولة في أعالي النيل الأزرق ولها ملوكها وسلاطينها فأرسل إليهم عبد الله جماع ابنه الأكبر عجيب الذي تفاوض مع ملك الفونج عمارة دنقس علي إقامة حلف يضم العرب والفونج لمحاربة الدولة المسيحية وإسقاطها وبالفعل تمكن هذا الحلف من هزيمة الدولة المسيحية والاستيلاء علي عاصمتها سوبا وعندما فرت جيوش هذه الدولة من سوبا إلي حصنهم في قري لاحقهم الشيخ عجيب والحق بهم الهزيمة وقضي علي سلطانهم.

وبسقوط هذه الدولة قامت مملكة سنار الإسلامية والتي كانت أول سلطنة إسلامية في هذه المنطقة تمددت في أراضي الدولة المسيحية السابقة وتوسعوا في الأراضي الأخرى حتى شمل سلطانهم معظم الأراضي المكونة للدولة السودانية تقريبا.

وبناءاً علي هذا الحلف أصبح الفونج هم الملوك ويحكمون الدولة من عاصمتهم سنار بينما كان العبدلاب هم النواب ويحكمون من قري علي رواية نعوم شقير بينما يري بعض العبدلاب غير ذلك إذ يرون أنّهم جميعا كانوا ملوكاً هؤلاء يحكمون جنوب المملكة و هؤلاء يحكمون شمالها.

استمرت هذه المملكة تحكم من العام1504م وحتى العام 1821م عندما أسقطها محمد علي وأبناؤه[1].

قامت هذه السلطنة بأدوار حضارية مهمة يمكن أن نشير إلي بعضها فيما يلي[2]:

1- هوية المملكة:

بقيام مملكة سنار الإسلامية أصبحت هوية الدولة إسلامية حيث اتخذت السلطنة الإسلام دينا وذلك لأول مرة في تاريخ السودان حيث أصبح يطلق عليها سلطنة سنار الإسلامية والتزم الكثير من ملوك الفونج ومشايخ العبدلاب بالإسلام وجعلوه نهجاً عاماً، وسلوكاً شخصياً، وأصبحت الشريعة هي الحاكمة والموجهة

(1) نعوم شقير-تاريخ السودان-تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم-بيروت1981م ص4-5وانظر كذلك عبد الله الحسن شاور-واضح البيان-مرجع سابق ص64

(2) Hill, Richard-Egypt in The Sudan 1821-1881-Oxford university press-p15

للسلطنة كما أصبح العلماء هم المستشارون والقضاة ورجال الدولة وبنيت المساجد لتكون منارات هداية ومراكز علم كما أسست الخلاوي والمدارس لتحفيظ القران وتدريسه كما اهتمت السلطنة بمشايخ الطرق الصوفية باعتبارهم المرشدين والموجهين الذين إلتفت حولهم العامة كاهتمامهم بالعلماء والإنفاق عليهم[1].

2- النظام الإداري:

لأول مرة تقوم في البلاد سلطة مركزية واحدة حيث أصبحت الدولة بامتداداتها الواسعة وكياناتها المتعددة تدين بالولاء لحكام سنار ويؤدون لهم فروض الولاء والطاعة.وقامت هذه السلطنة علي نظام إداري بسيط بساطة ذلك المجتمع حيث اعتمدت الدولة علي مشايخ القرى والمناطق يحكمون باسمها نظير الولاء والطاعة وتقديم بعض الالتزامات.

3-العلاقات الخارجية :

اهتم حكام هذه السلطنة ببناء علاقات خارجية خاصة مع بلاد الحرمين ومصر وبلاد غرب إفريقيا وهي علاقات في إطار الكيان الإسلامي الذي كان موجوداً في ذلك الوقت كما كان لها بعض المنازعات كما هو الحال مع بعض ملوك الحبشة.

4- النشاط الاقتصادي :

النشاط الاقتصادي في سلطنة سنار كان نشاطا بسيطا فالأسواق الأسبوعية كانت تقوم في المدن الصغيرة و القرى ويختار لكل منطقة يوم معين يناسب المصلحة العامة للسكان حثي يتمكنوا من الانتقال من سوق لأخر.وفي هذه الأسواق يتبادل الأهالي مختلف منتجاتهم المحلية وكان التداول غالبا عن طريق المقايضة أمّا في المدن الكبرى فكان السكان يستخدمون العملات الإسبانية وغيرها.

أمّا الحكومة فكانت تتحصل علي أنصبتها من المكوس التي تفرضها علي القوافل التجارية كذلك من الزكاة والضرائب وكان لها مراكز جمركية في عدد من المدن والقرى الكبيرة.

(1) خوجلي أحمد الصديق-الحياة الثقافية والفكرية في السودان-دراسة تاريخية عن التعليم في العهد التركي-مجلة تفكر-المجلد13-العد1-22013م ص187.

وبالنسبة لسنار العاصمة فيصفها الرحالة (كرمب) الذي زارها في العام1701م بأنّها مركز تجاري مهم وكانت القوافل التجارية تتردد بينها وبين دنقلة وبلاد النوبة والحبشة ودارفور وبرنو وفزان وغيرها من الأقطار[1]. وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد القاهرة من حيث ازدحام السكان حيث يسكنها جميع الأجناس بحرية واطمئنان وسوقها عظيم ومنظم وكل سلعة لها أماكنها الخاصة.

وكان قبله الرحالة الفرنسي (بونسيه) قد ذكر أنّ البضائع التي ترد إلي سنار من الخارج هي البهارات و الورق والنحاس والحديد والعطور وغيرها.

وتجار سنار بحسب ما روي (بونسيه) كانوا يتعاملون مع ميناء سواكن حيث يأتون باللؤلؤ من تلك المدينة ويتاجرون مع (مخا) في اليمن ومع (سورات) في الهند ، وكانوا ينقلون إليها الذهب و الزباد وسن الفيل ، ويرجعون بالبضائع الهندية من عطور وبهارات وغيرها وكانوا يمضون في هذه الرحلة نحو سنتين[2].

ومن داخل السودان كان يرد إلي سنار التمر من دنقلة ومن كردفان كان يأتي التبر والحديد ومن فازوغلي يأتيها الذهب والجلود والسمسم.

وفي مجال الصناعة والحرف يوجد الصاغة الذين اشتهر عملهم في مصر بالسناري وكذلك الحاكة لحياكة المنسوجات القطنية.

وكان ملوك سنار يجمعون الزكاة والفطرة والعشور علي غرار ما يفرضه الشرع الإسلامي كما أنّهم كانوا يقومون بتوزيع الأراضي علي الراغبين في فلاحتها أو رعيها وكثير من أهالي السودان اليوم يملكون أراضيهم بحجج من أيام ملوك سنار[3].

5-النظام الاجتماعي:

النظام الاجتماعي في ذلك الوقت كان يقوم علي الأسرة باعتبارها أصغر وحدة اجتماعية ومن مجموع الأسر تتكون العشائر والقبائل.

---

(1) الشاطر بصيلي عبد الجليل-معالم سودان وادي النيل مكتبة العرب-القاهرة 1966م ص110

(2) المرجع السابق ص111

(3) د.مكي شبيكة-السودان عبر القرون-دار الثقافة بيروت ص80

وكان للمرأة دور اجتماعي كبير حيث أنّها كانت تساهم مساهمة كبيرة في حركة المجتمع التعليمية والاقتصادية وغيرها ومن يطالع كتاب الطبقات يجد العديد من النماذج النسوية الفاعلة في الحركة الاجتماعية كفاطمة بنت جابر والتي أنشأت مدرسة لتعليم القرآن وعلومه.

هذه المظاهر الحضارية المختلفة تؤشر إلي أدوار فاعلة قامت بها هذه الدولة علي غير مثال سابق حيث أنّها لم تجد أمامها نموذجاً يمكن لها أن تحتذيه ومع ذلك كان لها الدور في تكوين سودان اليوم من حيث الهوية والنشاط الاقتصادي والاجتماعي وغيره [1].

المحور الثاني

اهتمام سلاطين سنار بالعلم والعلماء

ذكرنا في المحور الأول أنّ سلطنة سنار اتخذت من الإسلام هوية وبالتالي عملت علي نشره بالحسنى وتوسعت في بناء المساجد والخلاوي واهتمت بالعلم والعلماء والطلاب وجعلت من الشريعة هاديا لها وجعلت القضاء وفقا لأحكامها ويأتي الاهتمام بالعلماء والطلاب باعتبار أنّهم هم المبشرون بأحكامها والدعاة إليها والقضاة الذين ينفذون أحكامها. ومعلوم أنّ الإسلام قد دخل إلي السودان عبر أربعة مداخل هي الحجاز ومصر والمغرب واليمن.

وكان ملوك سنار علي علاقة طيبة بمصر وذلك بحكم الجوار وبحكم أن مصر تمثل واحدا من طرق دخول الإسلام في السودان . وكان ملوك سنار علي صلة طيبة بعلماء مصر حيث كانوا يرسلون إليهم بالهدايا بينما كان هؤلاء العلماء يمدحونهم بالقصائد[2].

وقد أشار كاتب الشونة بصفة خاصة إلي قصيدة الشيخ عمر المغربي أحد علماء الأزهر في مدح الملك بادي والتي احتوت علي أكثر من مائة بيت ، والظاهر أنّ الصلات الثقافية بين مصر ودولة سنار كانت تتم عبر طريقين [3]:

(1) ألن مورهيد-النيل الأزرق-ترجمة نظمي لوقا-دار المعارف ص266

(2) د.عبد المجيد عابدين-تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلي الآن-دار الثقافة للطباعة والنشر-بدون تاريخ ص56

(3) ألن مورهيد-النيل الأزرق-ترجمة نظمي لوقا-دار المعارف ص266.

1- هجرة الطلاب السناريين للدراسة في الأزهر ثم العودة إلي أوطانهم لينشروا ما تلقوه من علم ومعرفة بين أهليهم.

2- هجرة علماء مصر إلي سنار والإقامة هناك بقصد نشر معارفهم بين السكان.وقد عبر عن هذه العلاقة أحد الباحثين بقوله :"وقد ظل الفونج إلي أن زالت دولتهم يعتمدون علي مصر في غذائهم الروحي فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة في الأزهر الشريف وعادوا إلي بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية كما وفد علي البلاد كذلك بعض الفقهاء من مصر يحيون بها دراسة الشرع الحنيف مجردا من البدع و الخرافات التي لحقت به."[1] فأنشأ الخلاوي لتحفيظ القرآن وتدريس علوم الدين وكان له بين الخرطوم والكوة ثلاثة عشر مدرسة[2].

كذلك هاجر إلي مصر أولاد جابر الأربعة وهؤلاء يرجعون بنسبهم إلي الشيخ غلام الله بن عائد اليمني ويبدو أن قدومهم إلي مصر كان بعد قدوم الشيخ محمود العركي[3].وبعد عودتهم من مصر قام أحدهم وهو إبراهيم البولاد بتدريس الفقه المالكي حيث درس مختصر خليل وكتاب الرسالة وهو أول من درس خليل ببلاد الفونج وشدت إليه الرحال وكانت دراسته لخليل تتم في سبع ختمات علم فيها أربعين تلميذاً صاروا كلهم علماء[4].

ومن الطلاب الذين وفدوا علي مصر وكان لهم شأن في نشر علوم الدين في السودان الشيخ محمد المجذوب الذي ينتمي إلي أسرة المجاذيب والتي كان لها أثر كبير في نشر الثقافة الدينية في البلاد وكان الكثير من أبنائها يرحلون إلي القاهرة أو الحجاز طلباً للعلم ثم يعودون لمتابعة رسالتهم في بناء المساجد وإنشاء الزوايا لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد إليها الطلاب من كل الآفاق.

---

(1) محمد فؤاد شكري-صفحة من تاريخ السودان الحديث-مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة-العدد الثامن المجلد الثاني-ديسمبر1946م ص27.

(2) الحاج أحمد أبو علي-مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية-تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل-دار إحياء الكتب العربية 1961م ص11.

(3) الدكتور صلاح الدين المليك-شعراء الوطنية في السودان-دار النشر والترجمة –جامعة الخرطوم-ص34.

(4) محمد النور ضيف الله-كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان-تحقيق وتعليق الدكتور يوسف فضل-الطبعة الثالثة 1985م-دار التأليف والترجمة والنشر-جامعة الخرطوم ص344.

وبصفة عامة فإنّ من يراجع كتاب الطبقات لمؤلفه محمد النور بن ضيف الله يجد ظاهرة الهجرة إلي مصر واضحة جداً وقد ذكر المؤلف مجموعة كبيرة من الشيوخ الذين رحلوا إلي مصر وأخذوا العلم من شيوخ الأزهر.

ويلاحظ أنّ هجرة الطلاب إلي مصر قد قلت في أواخر عهد الفونج ربما بسبب الكوارث والمجاعات التي أصابت المجتمع إضافة إلي حالة العزلة التي اختارها حكام الفونج في آخر عهدهم وانقطعوا بسببها عن العالم الخارجي[1].

أمّا الطريق الثاني لنشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان وأعني به هجرة العلماء المصريين إلي السودان ، فمن العلماء الذين وفدوا علي السودان في عهد الفونج الشيخ محمد القناوي تلميذ الشيخ سالم السنهوري الذي نزل بربر وبني بها مسجدا.ومن ذرية هذا الشيخ نبغ حفيده الشيخ محمد أكداوي الذي جلس للتدريس بمدينة شندي[2].

كذلك قدم إلي السودان في عهد الفونج الشيخ محمد بن قرم الكيماني الذي استوطن بربر إلي أن توفي بها وأخذ عنه العلم عدد كبير من شيوخ السودان.كما وفد إلي السودان كذلك من مصر الشيخ جاد الله الشكري الذي وصفه صاحب الطبقات بأنه كان ورعا تقيا عالما زاهدا متواضعا[3].

ويلاحظ قلة العلماء المصريين الوافدين إلي السودان وربما يرجع ذلك إلي صعوبة المواصلات وخطورة الطريق وعدم استتباب الأمن في بعض الأحيان.

والظاهر أنّ لهؤلاء العلماء الذين وفدوا من مصر دور كبير في تمذهب أهل السودان بالمذهب المالكي خاصة وأن أهل صعيد مصر يتمذهبون بهذا المذهب.

ويري بعض الباحثين أنّ هذا المذهب قد جاء السودان مع الموجات الثقافية التي قدمت من غرب أفريقيا وحوض بحيرة تشاد وفي اعتقادي أن هذا الرأي يمكن أن يكون صائباً ولكن الدور المصري لا يمكن تجاهله في هذا الأمر لأنّ علاقة مصر بالسودان كانت أقوي من علاقته بغرب أفريقيا.

---

(1) محمد فوزي مصطفي عبد الرحمن- الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان-الدار السودانية-1972م ص34.

(2) كتاب الطبقات –مرجع سابق ص111.

(3) المرجع السابق ص354.

وعن المدارس في عهد الفونج يقول الدكتور أبو سليم:"أمّا مدارس العلم فإنّها بدأت بمدرسة غلام الله بن عائد في دنقلة في القرن الرابع عشر ورغم إنّنا لا نعرف إلا القليل عن هذه المدرسة إلا أنّها بلا شك قد وضعت الأساس لمدارس دنقلة فيما بعد.وبعد انقطاع قرنيين من الزمان جاءت مدرسة أولاد جابر بتأثيرات مصرية بحكم أن مؤسسها قد درس في مصر.والمرء يعجب لهذه الفجوة الزمنية الطويلة بين هذه المدرسة والتي قبلها. وإنّا لنكاد نميل إلي القول بأنّ حركة المدارس واصلت سيرها وإن لم تصلنا أخبارها.ولقد بدأت مدرسة أولاد جابر في سنة1552م وانتهت في سنة 1614م وكانت بجزيرة ترنج قرب الكاسنجر بديار الشايقية وقد اختيرت هذه الجزيرة النائية مقراً لتكون المدرسة منقطعة للعلم وبعيدة عن الحكام وطرق القوافل وذلك بعكس مرابط الصوفية التي كانت تقام علي طريق القوافل,ولعلنا نلحظ هذا الفرق فالحركة الصوفية تتجه نحو الجمهور وتتصل بمعابر القوافل التجارية بينما يتجه العلم نحو الخاصة بعيدا عن الضوضاء"[1].

لقد وضعت هذه المدرسة بعض التقاليد منها الدراسة المنتظمة وفق منهج مقرر من العلوم الإسلامية تدرس في أوقات محددة وفي فصول للدراسة تجاورها مساكن الطلبة وهي بعيدة كل البعد عن نفوذ الحكام وتأثير العواصم والمدن ليقبل الطلبة علي العلم ويتفرغوا له".

ومن تقاليدها أيضاً أنّ المعلم يعطي العلم تطوعا لوجه الله لمن يرغب ولا يطلب مقابله شيئا.ولكن التطوع من أجل العلم كان يقابله إحسان الجميع بالعطايا وهكذا يشكل العالم بنشر العلم خدمة للدين ويتكفل المجتمع بحاجاته وبما يصرفه علي طلبته"[2].

"ومدرسة نوري التي أنشأها عبد الرحمن ولد حمدتو الخطيب تفرعت عن مدرسة أولاد جابر وعمرت لأكثر من قرن وخرجت أجيالاً من العلماء وكان من مبرزيها حمد

(1) يوسف فضل وآخرون-من معالم تاريخ الإسلام في السودان-المجموعة الأولي-دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-الخرطوم ص37

(2) المرجع السابق ص 38.

الأغبش وإبراهيم بن عبودي الفرضي وقد أسسا مدرستين مستقلتين ، وحمد المجذوب مؤسس مدرسة الدامر وعبد الرحمن النويري مؤسس مدرسة أربجي "[1].

"ومن الذين أخذوا العلم من مدرسة أولاد جابر أبو إدريس العركي ويعقوب بانقا. والشيخ صغيرون مؤسس مدرسة القوز وهو أستاذ أرباب بن علي الخشن المشهور بأرباب العقائد والذي تخرج علي يديه أعداد غفيرة من العلماء نذكر منهم حمد ود أم مريوم و خوجلى عبد الرحمن وفرح ود تكتوك.

"وبعد أن أفلت مدارس الشايقية جاءت مدارس الأبواب التي امتدت من مقرات إلي شندي وكان أهمها مدرسة القوز ومدرسة الغبش ومدرسة الدامر والمدرسة الأخيرة ترتبط بطريقة صوفية هي المجذوبية,مؤسس هذه المدرسة هو نفسه مؤسس الطريقة.أمّا مدرسة الغبش فكانت معادية عموماً للطرق الصوفية وقد ركزت علي علوم القرآن [2].

"وإلي الجنوب من الأبواب تأتي مدارس قري وقد تميزت أولا بتفرد فقهاء المحس والذين انتشروا في جزيرتهم تؤتي وأنشئوا عدداً من المراكز الدينية كما تميزت بعلاقتها الوطيدة بمشيخة العبدلاب الأمر الذي جعل إقبالها نحو الأحوال الشخصية والفتاوى والأحكام المتعلقة بملكية الأرض أمراً ملحوظاً مما كرس قدر كبير من الجهد نحو خدمة الدولة وشئون المتقاضين.وأشهر مدارس قري مدرسة أرباب العقائد والتي بدأ بها عمران الخرطوم وتعلم فيها الآلاف" [3].

أمّا الشيخ فرح ود تكتوك فقد اتخذ خطا مغايرا لعادة الفقهاء وهاجم الكثير من هذه العادات بينما اتخذ الشيخ حمد ولد أم مريوم مساراً توحيدياً متشدداً ونادى بالالتزام المنضبط بالكتاب والسنة.

ومدرسة ود عيسي الخزرجى في كترانج ثم المسيد كانت ذات تأثير عظيم وقد لعب خريجوها دورا كبيراً في تاريخ القضاء .وقامت في الجزيرة مدارس وكانت متأثرة

(1) المراجع السابق-نفس الصفحة.
(2) المرجع السابق ص39.
(3) المرجع السابق ص37.

بقربها من قصبة الدولة ولعل أهم مدارسها مدرسة محمود العركي في النيل الأبيض "[1].

مما ذكرنا يمكن أنّ نلاحظ عدة ملاحظات :

1/ أنّ اللبنة الأولي للمدارس قد وضعت في الشمال حيث المجتمع المستقر وأنّ هذه اللبنة كانت متأثرة بمصر بحكم ثقافة وتعليم المؤسسين لها.

2/ أنّ اتساع المدارس قد اتخذ وجهة جنوبية مع النيل في خط مع المجتمع المستقر وقد ازداد نشاطها كلما اقتربنا من مركزي مشيخة العبدلاب في قري والحلفاية. أمّا مدارس سنار فلم يكن لها ذلك القدر من الشهرة وربما كان ذلك بسبب نفوذ الطرق الصوفية الكبير.

3/ كان المعلم يقوم بدوره تطوعا لخدمة الدين وأنّ المجتمع كان يقوم بالأنفاق علي المعلمين والطلاب خدمة للدين وبقصد الثواب.

4/ هذه المدارس لم تكن معزولة عن المجتمع وما يجري فيه وإنّما كانت تؤثر وتتأثر وهكذا نجد إقبالها نحو الفتيا في أمور الحكم كلما اقتربت من مراكز الحكم [2].

المحور الثالث

نظام القضاء في سلطنة سنار

أشرت في المحور السابق إلي دور حكام سنار في رعاية العلم والعلماء حتى انتشرت مدارس الفقه والقرآن وكان المذهب الرسمي لهذه السلطنة هو المذهب المالكي.

وقد كان منصب القضاء في هذه السلطنة يقوم به عالم من العلماء ينتدبه السلطان للنيابة عنه في نظر القضايا بين المسلمين في المحاكم ويسمي هذا القاضي بقاضي الإسلام.

كما أنّ منصب الإفتاء يقوم به عالم ينتدبه السلطان ليستفتي في مسائل المسلمين الدينية وكان يطلق عليه مفتي الإسلام.

---

(1) المرجع السابق ص38

(2) محمد إبراهيم أبو سليم-دور العلماء في نشر الإسلام في السودان-المجموعة الأولي من أبحاث معالم تاريخ السودان-دار الفكر للطباعة والنشر –بدون تاريخ ص76-77.

كذلك هناك منصب شيخ الإسلام ويقوم به عالم ينتدبه السلطان يرعي شئون العلماء بحسب درجاتهم واستحقاقهم ولياقتهم وينظر في جميع المسائل المتعلقة بهم كالعزل والتولية والإيقاف.

كما ينتدب السلطان كذلك عالما يرعي الطرق الصوفية وشؤونها ويسمي شيخ مشايخ الطرق.ويلاحظ أنّ هذا النظام يكاد يطابق نظام الدولة العثمانية وربما انتقل هذا النظام إلي مملكة سنار من مصر أو الحجاز بحكم أنها كانت ولايات عثمانية[1].

أنشأت مملكة سنار محكمة عليا بسنار العاصمة وعين ملوكها لها قاضيا يسمي بقاضي عموم سنار وأمروه بالحكم بين الناس بالعدل والإنصاف. كما أنشأ كل ملك من ملوك هذه المملكة وكل شيخ من مشايخها محكمة صغري بعاصمته وعين لها قاضيا ليحكم بين الرعية بما أنزل الله تعالى .فهناك قاضي مملكة السعداب في شندي وقاضي مملكة الرباطاب في أبي حمد وقاضي مملكة الميرفاب في بربر وقاضي مملكة الشايقية في حنك وقاضي مملكة المحس في فريق وقاضي مشيخة الشنابلة في المسلمية وقاضي مشيخة المناصير في السلمات وقاضي مملكة الدفار في الحتانة وقاضي مملكة تنقسي بجزيرة تنقسي وقاضي مملكة الخندق بالخندق وقاضي مملكة ارقو بارقو ، وهكذا في باقي أنحاء المملكة[2].

وكانت المحاكم تشكل من قاضي واحد أو أكثر وعدد من النواب يختلف عددهم قلة وكثرة بحسب أهمية المحكمة وإعمالها ، ويجوز أن يكون في المملكة أو المشيخة الواحدة عدة قضاة في جهة واحدة أو جهات متفرقة ، ومثال ذلك ما حصل في مشيخة العبدلاب حين طلب الملك دكين1562م–1577م من الشيخ عجيب تولية بعض العلماء للقضاء في مشيخته فولي كل من الشيخ عبد الله العركي والشيخ عبد الرحمن بن الشيخ النويري والشيخ بقدوش القضاء علي دار الجموعية[3].

([1]) حسين سيد احمد المفتي-تطور نظام القضاء في السودان-امدرمان1958م ص17.
([2]) المرجع السابق ،والصفحة نفسها.
([3]) كتاب الطبقات-مرجع سابق، ص252.

هذا وكان يوجد قضاء في الممالك المذكورة يسمي قضاء الشريعة البيضاء وهو ينحصر في القرى والبوادي فإذا حصل نزاع بين جماعة من أهل القرية أو البادية فإنّ لهم أن يذهبوا باختيارهم إلي أحد العلماء المقيمين معهم بالقرية أو المسافرين معهم بالبادية فيقضي هذا العالم بينهم بالشريعة الإسلامية فإذا عارض معارض في الحكم فإنّه في هذه الحالة يكتب العالم حكمه في ورقة يرسلها مع المعارض إلي قاضي المملكة أو المشيخة للنظر ومتى وجد القاضي الحكم مطابقا لأحكام الشريعة فإنّه يجيزه ويسري مفعول الحكم كسائر أحكام القضاة[1].

كذلك عرف نوع من القضاء أطلق عليه قضاء الأجاويد وهم جماعة من كبار السن وشيوخ القبائل إذا عرضت مشكلة من مشكلات الأرض أو الدماء أو غيرها فإنّهم يجتمعون ويدرسون المشكلة ويعملون علي حلها ،وهذا النوع من القضاء موجود في كل المجتمعات البدوية تقريباً.

ولم تحدد دولة سنار رواتب محددة للقضاة بل كان الملك يأمر بأن يدفع للقاضي من بيت المال ما فيه الكفاية له حتى لا يمد يده إلي أموال الناس بطريقة تسئ إليه أو إلي قضائه.

المحكمة العليا بسنار:

هذه المحكمة عبارة عن محكمة عليا ولذلك فهي لا تختص بنظر دعاوي إقليم بعينه وإنّما يشمل اختصاصها كل أرجاء دولة سنار وتحكم هذه المحكمة في القضايا الخاصة بالسلب والنهب والسطو والقتل وفي قضايا الزواج والطلاق والوراثة والوصايا والهبة والبيع والشراء والوقف والوكالة ،وكانت أحكامها وفق المذهب المالكي وبها عدد من النواب والعلماء المعروفين بالعلم وحسن السيرة ،يعينهم القاضي ليساعدوه في الأحكام ، كما أنّ بها كذلك عدد من الكتاب الذين يشتهرون بحسن الخط ولهم إلمام تام باللغة العربية وفقه الشريعة ولم يكن لهذه المحكمة دار معينة فكانت تعقد بمسجد المدينة أو بمنزل القاضي أو في أي مكان آخر.

(1) حسين سيد احمد المفتي-تطور نظام القضاء-مرجع سابق ص18.

ويحيط بمجلس القضاة الحجاب لجلد كل من تحدثه نفسه بالتشويش أو التعدي علي الغير أثناء انعقاد الجلسة فإذا تمادي هذا المعتدي أمر القاضي بحبسه تأديباً له ومحافظة علي حسن سير مجلس القضاء ، لذلك كان لجلسة القضاء روعتها وأبهتها وجلالها الشيء الذي يدل علي مكانة القضاء في نفوس جميع السكان.

ثم يشرع القاضي في سماع الدعوي ويتولي بنفسه توجيه الأسئلة إلي الخصوم وسماع شهادة الشهود ومناقشتهم ولا مانع من أن يطلب من النواب الذين معه بالجلسة توجيه ما يريدون في القضية من الأسئلة . وبعد أن يتم التحقيق اللازم في القضية يأمر القاضي الخصوم بالخروج من قاعة الجلسة وبعد خروجهم يتناقش مع النواب في القضية وبعد البحث والمناقشة إذا تم اتفاق الجميع فيقضي بها ونعمت ، وإلا فيرجح الجانب الذي معه القاضي . وقل أن يختلف القاضي مع نوابه.ثم يعاد الخصوم إلي الجلسة فينطق القاضي بالحكم ،ثم يملي القاضي الحكم علي أحد الكتبة فيذكر فيه أقوال المدعي والمدعي عليه وأدلة الإثبات والنفي وشهادة الشهود وغير ذلك من الإجراءات والمرافعات ثم ترجيح أحد الجانبين مع بيان النصوص الشرعية التي يعتمد عليها في حكمه فيكتب الكاتب ذلك علي ورقة بخط جميل واضح وبعد التوقيع عليها من قبل القاضي تسلم إلي المحكوم له الذي يجب عليه أن يحافظ علي هذه الورقة حتي يتم تنفيذ الحكم إذ لا صورة لها بالمحكمة . والقاضي في سلطنة سنار لا يتقاعد عن العمل ما دام يتمتع بصحة جيدة في جسمه وعقله وسمعه وبصره ولذلك قل أن تجد قاضيا من الشباب.

ويظهر أنّ القضاء في مملكة سنار في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري قد توارثه الناس كما تتوارث الضياع فبيوت القضاء معروفة مشهورة لا يخرج القضاء عنها ولذلك في كثير من الأحوال تجد أن قاضي الجهة هو إبن قاضيها السابق وحفيد قاضيها الأسبق كما في ترجم كثير من القضاة في كتاب الطبقات مثال ذلك الشيخ حلالي بن الشيخ محمد عيسي سوار الذهب فقد كان قاضيا بدنقلة وكان أبوه قاضيا بها وكذلك الشيخ دياب بن الشيخ نجيب كان قاضيا بسنار وكان أبوه قاضيا بها وكذلك الشيخ قناوي بن محمد القناوي المصري كان

قاضيا ببربر كما كان أبوه قاضيا بها. ويذكر صاحب الطبقات عن الشيخ محمد القناوي هذا قصة مشهورة إذ اخذ ابنه قناوي الرشوة في أحكامه فركب الشيخ محمد القناوي دابته وحمل علما أبيضا وطاف بالأسواق وهو ينادي أن أحكام ابنه قناوي باطلة لأنّه ارتشى في قضائه [1].

المحاكم الصغرى:

تحدثت عن المحكمة العليا واختصاصاتها.أمّا المحاكم الصغرى فاختصاصها الحكم في المسائل الزراعية والجرائم الصغيرة كالمشاجرات والسرقات البسيطة وفي مسائل الزواج والطلاق والمواريث والهبة والحجر والوصاية والوقف وكتابة حجج العقارات والأطيان ولا اختصاص لها في الدعاوي الكلية التي تختص بها المحكمة العليا.

وتتشكل كل محكمة صغري من قاض واحد ونائب واحد إلا فيما ندر فإنّها تتشكل من أكثر من ذلك كما سبقت الإشارة إلي محكمة الجموعية التي ذكر صاحب الطبقات أنّ قضاتها كانوا ثلاثة وربما يرجع ذلك لأهميتها وكثرة القضايا فيها أو لاتساع المنطقة التي تدخل في دائرة اختصاصها.

هذا وقد ذكر بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مملكة سنار بعض المشاهدات المتعلقة بالقضاء ومن ذلك ما ذكره الرحالة الفرنسي (بونسيه) عن حاكم سنار حيث قال أنّه لم يكن يظهر في المناسبات العامة لجمهور الناس إلا وعلي وجهه نسيج من الشيفون الملون يغطي ملامحه ويرأس بنفسه محكمته القضائية في هيئة شبيهة بهيئة حاكم روماني. وفيما يصدر الحكم علي المجرمين كانوا يطرحون أرضاً ويضربون بالهراوات حتى الموت ويصعب علي المرء تصديق هذه الرواية في ظل النظام القضائي الذي رأينا [2].

كذلك ذكر الرحالة (كرمب) أنّه شاهد محكمة المانجل فذكر أنّ الشاكي والمدعي عليه يختار كل منهما محاميه من بين الحضور فيخبر الشاكي محاميه بالقضية التي يقوم بعرضها ويرد المدعي عليه ثم يترافع كل محام عن جانبه الذي

([1]) كتاب الطبقات-مرجع سابق ص100

([2]) ألن مورهيد –النيل الأزرق –مرجع سابق ص231.

أوكله وقد يشترك بعض الحاضرين في المناقشة مؤيدين أو معارضين وأثناء ذلك ينصت المانجل وقد استوعب القضية بعد شرحها وتقديم الأدلة من الجانبين سوءا أكان من المحامين أو من الحضور الذين اشتركوا في المناقشة وعند الانتهاء يصدر حكمه الذي لا استئناف بعده. وفي هذه المحكمة بالذات أصدر حكمه علي احد المتخاصمين بالضرب حيث تناول الحاضرون عصيهم وانهالوا عليه ضربا حتى أمر المانجل بالتوقف[1].

هذه الحادثة والتي سبقتها لا يمكن أخذها علي إطلاقها وذلك لجهل هؤلاء الرحالة بلغة أهل البلاد وعاداتهم إضافة إلي أنّ مشاهداتهم هذه لا تصلح للتعميم إذ ربما شاهد أحدهم واقعة تأديب بعينها فيأخذها كمثال يصدر به حكما عاماً.

وقد علق أحد الباحثين علي نظام القضاء الإسلامي في دولة سنار بقوله: ".لهذا يمكننا أن نقول بأنّ تطبيق الشريعة قد شابه شيء غير قليل من التحريف لعدم وجود علماء يصلحون لاستنباط الأحكام الفقهية التي قامت عليها القواعد القانونية المختلفة خلال فترة حكم مملكة الفونج ، ويمكننا أن نقول أيضاً بأنّ ضآلة علم القبائل التي تكونت منها مملكة الفونج بالشريعة الإسلامية أدي إلي اختلاط قواعد الشريعة بشيء غير قليل من العادات القبلية وإلى طغيان تلك العادات علي الشريعة نفسها أحياناً.وقد ظلت العادات والعرف القبلي يسيطران علي المجتمعات القبلية التي لم تدخل تحت سيطرة الفونج وبالتحديد في أقاصي الجنوب والشرق" [2].

ربما يكون هناك شيء من الجهل وربما تكون بعض الأعراف والتقاليد قد أخذت طريقها إلي النظام القضائي خاصة قضاء الأجاويد ، ولكن قطعا الصورة لم تكن بهذه القتامة التي أشار إليها الباحث وحاول أن يعكسها . ودليلنا علي ذلك هذا النظام القضائي الذي تحد ثنا عنه وهؤلاء العلماء الذين نشروا العلم في

(1) د.مكي شبيكة-تاريخ شعوب وادي النيل -مصر والسودان في القرن التاسع عشر-دار الثقافة بيروت-ص322.

(2) زكي مصطفي عبد المجيد-القانون المدني السوداني تاريخه وخصائصه-معهد الدراسات العربية القاهرة 1968مص6-7

كل إرجاء مملكة سنار وهؤلاء القضاة الذين ما كانوا يخافون في الحق لومه لائم كالقاضي دشين الذي اثني عليه الشيخ فرح ود تكتوك وكالقاضي محمد القناوي وغيرهما من القضاة الذين ترجم لهم صاحب الطبقات.

الخاتمة

تناول البحث القضاء في سلطنة ستار الإسلامية والتي نشأت نتيجة لتحالف سياسي بين القبائل العربية وقبائل الفونج وقد كان لهذه الدولة أدوارها الحضارية وجهودها التنظيمية والتي منها اهتمامها بالعلم والعلماء والطلاب وبنائها للخلاوي والمساجد والمدارس. كما أنشأت هذه السلطنة نظاما قضائيا يناسب تطور ذلك المجتمع ويقوم علي حاكميه الشريعة واتخذت من مدونات الفقه الإسلامي مرجعيات يستمد منها القضاء أحكامه.

النتائج :

من خلال العرض السابق للنظام القضائي في دولة سنار الإسلامية يمكن لنا أن نستخلص عدد من النتائج نذكر منها:

1-نشأت دولة سنار الإسلامية نتيجة حلف بين القبائل العربية بقيادة عبد الله جماع وعمارة دنقس زعيم الفونج وذلك في العام1504م

2-قامت هذه الدول بعدد من الأدوار الحضارية حيث اتخذت من الإسلام هوية وكيفت نظامها السياسي والاقتصادي والقضائي والاجتماعي وفقا لإحكام الشريعة.

3-اهتمت الدولة بنشر العلم وإكرام العلماء حيث أجرت عليهم الجرايات واقطعنهم الأراضي وأوقفت لهم الأوقاف وعينتهم في وظائف القضاء وغير ذلك.

4-قلدت دولة سنار الدولة العثمانية في بعض الوظائف الدينية مثل تسمية شيخ الإسلام ومفتي الإسلام والاهتمام بالطرق الصوفية.

5-اتخذت الدولة المذهب المالكي مذهباً رسمياً واستندت علي أحكام هذا المذهب في محاكمها.

6-لم يكن للقضاة في دولة سنار رواتب ومخصصات محددة وإنّما يأخذون من بيت المال ما يكفيهم حتى لا يحتاجوا إلي ما عند الناس.

7-نظام القضاء في دولة سنار يشابه نظام القضاء في الدول الإسلامية من حيث المرجعية القانونية واختيار القضاة والنواب والأعوان والحجاب وتدوين الأحكام.

التوصيات :

توصي الورقة بالأتي :

أ-دراسة تطور النظم المختلفة في دولة سنار باعتبارها البدايات التي تطورت منها النظم في السودان.

ب-عمل ترجمات للقضاة الذين تولوا القضاء في دولة سنار وذلك بقصد بناء صورة متكاملة عن النظام القضائي.